



جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية
الدراسات الأولية
للعام الدراسي ٢٠٢٥ - ٢٠٢٦

محاضرات السيرة النبوية

عنوان المحاضرة
معجزة الاسراء والمعراج

من كتاب
(فقه السيرة النبوية)

المرحلة الثانية

مدرس المادة
أ.م.د وسمي محمد احمد

معجزة الإسراء والمعراج

ويقصد بالإسراء الرحلة التي أكرم الله بها نبيه من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس ، أما المعراج فهو ما أعقب ذلك من العروج به إلى طبقات السماوات العلا ثم الوصول به إلى حد انقطعت عنده علوم الخلائق من ملائكة وإنس وجن ، كل ذلك في ليلة واحدة.

وقد اختلف في ضبط تاريخ هذه المكرمة الإلهية هل كانت في العام العاشر من بعثته ﷺ أم بعد ذلك ، والذي رواه ابن سعد في طبقاته الكبرى أنها كانت قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً.

وجمهور المسلمين على أن هذه الرحلة كانت بالجسم والروح معاً ، ولذلك فهي من معجزاته الباهرة التي أكرمها الله بها .

أما قصة ذلك فقد رواها البخاري ومسلم بطولها .

وفيها أنه ﷺ أتى بالبراق ، وهو دابة فوق حمار ودون بغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه .. وفيها أنه ﷺ دخل المسجد الأقصى فصلى فيه ركعتين ، ثم أتاه جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاختر عليه الصلاة والسلام اللبن ، فقال جبريل : اخترت الفطرة .. وفيها أنه عرج به ﷺ إلى السماء الأولى فالثانية فالثالثة .. وهكذا حتى ذهب به إلى سدرة المنتهى وأوحى الله إليه عندئذ ما أوحى .. وفيها فرضت الصلوات الخمس على المسلمين ، وهي في أصلها خمسون صلاة في اليوم والليلة (٢٣) .

(٢٣) إذا أردت الوقوف على قصة الإسراء والمعراج ، فاقرأها في صحيح مسلم أو البخاري أو أي مصدر من مصادر السنة الصحيحة . وحاذر أن تعتمد على مثل كتاب (معراج ابن عباس) فهو مليء بالكذب والأباطيل وابن عباس بريء من هذا الكتاب .

ولما كانت صبيحة اليوم التالي وحدث رسول الله ﷺ الناس بما شاهد ، طفق المشركون يجمع بعضهم بعضاً ليتناقضوا هذا الخبر الطريف ويضحكوا منه . وتحداه بعضهم أن يصف لهم بقايا بيت المقدس ما دام أنه قد ذهب إليه وصلى فيه ، والرسول حينما زاره لم يخطر في باله أن يجيل النظر في أطرافه ويحفظ أشكاله وعدد سواريه ، فجلى له الله عز وجل صورته بين عينيه وأخذ يصفه لهم وصفاً تفصيلاً كما يسألون . روى البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لما كذبتني قريش قمت في الحجر ، فجلى الله لي بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » .

أما أبو بكر رضي الله عنه فقد حدثه بعض المشركين عما يقوله الرسول ، رجاء أن يستعظمه فلا يصدقه ، فقال : « إن كان قال ذلك لقد صدق ، إني لأصدقه على أبعد من ذلك » .

وفي صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل وعلم رسول الله ﷺ كيفية الصلاة وأوقاتها . وكان عليه السلام قبل مشروعية الصلاة يصلي ركعتين صباحاً ومثليهما مساءً كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام .

العبر والدلالات :

أولاً - كلمة عن الرسول والمعجزات :

يولع بعض الباحثين بالمبالغة في تصوير حياة النبي ﷺ على أنها حياة بشرية عادية ، وذلك من خلال الإطناب في بيان أن حياته ﷺ ، لم تكن معقدة وراء الخوارق والمعجزات ، بل كان منكراً لها غير عابئ بها ولا ملتفت إلى المطالبين بها ، وأنه كان يؤكد دائماً أن المعجزات والخوارق ليست من شأنه وليس له إليها سبيل ، ويكثرون في هذا من الاستشهاد بمثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ بحيث يخيل إلى القارئ أو

السامع أن سيرته ﷺ كانت بعيدة كل البعد عن المعجزات والآيات التي يؤيد الله بها في العادة أنبياءه الصادقين.

وإذا أمعنا في منبع هذه النظرية عن رسول الله ﷺ ، نجد أنها في الأصل فكرة بعض المستشرقين والباحثين الأجانب من أمثال غوستاف لوبون ، وأوجست كونت ، وهيوم ، وجولد زيهير ، وغيرهم . وأساس هذه النظرية عندهم وسببها ، هو عدم الإيمان بخالق المعجزات أولاً . ذلك لأن الإيمان بالله عز وجل إذا استقر في النفس ، سهل الإيمان بكل شيء بعد ذلك ولم يبق شيء في الدنيا يستحق أن يسمى في الحقيقة معجزة .

ثم تلقف هذه النظرية منهم ، أناس من المسلمين ، كان من سوء حظ العالم الإسلامي ، أن جندوا كل مساعيهم وعلومهم للتبشير بأفكار أولئك الأجانب دون أي مؤيد سوى الافتتان بزخرف خداعهم وانخراط أبصارهم بمظهر النهضة العلمية التي هبت في أنحاء أوروبا . وكان من هؤلاء المسلمين الشيخ محمد عبده ، ومحمد فريد وجدي ، وحسين هيكل ..

ثم نظر محترفو التشكيك وأرباب الغزو الفكري ، فوجدوا في هذا الذي يقوله بعض من المسلمين أنفسهم ما يفتح لهم آفاقاً وميادين جديدة لغزوهم الفكري وتشكيك المسلمين بدينهم ، يغنيهم عن وسيلتهم العتيقة .. وسيلة الحرب المباشرة للعقيدة الإسلامية وغرس الأفكار الإلحادية في الرؤوس.

فراحوا يروجون صفات معينة الرسول الله ﷺ كالبطولة والعبقرية والقيادة في عبارات من الإعجاب والإطراء ، ويبالغون في الوقت ذاته في تصوير حياته العامة بعيدة عن كل ما لا يدركه العقل من المعجزات وخوارى العادات ، كي يتم لهم إنشاء صورة جديدة للنبي ﷺ في أذهان المسلمين مع مرور الزمن ، قد تكون صورة (محمد العبقري) أو تكون صورة (محمد القائد) أو تكون صورة (محمد البطل) ولكنها لا ينبغي أن تكون على أي حال من الأحوال صورة (محمد النبي والرسول) إذ تكون جميع حقائق النبوة بما يحف

بها ويستلزمها من وحي .. وغيبات وخوارق ، قد قذف بها - بعامل هذا الترويج
للألقاب العبقريّة والبطولة البعيدين عن المعجزات والخوارق - إلى عالم ما يسمونه :
الميثولوجيا (الأساطير) ذلك لأن ظاهرة الوحي والنبوة تعتبران في رأس المعجزات

وحيث لا ينبغي أن يتصور - بطبيعة الحال - أي سبب لتكاثر مختلف الناس
والأمم من حول الرسول وانضوائهم تحت لوائه وانسياقهم في دعوته ، إلا التأثير بعبقريته
ومقومات القيادة في حياته . وانظر ! .. فإن هذا القصد الذي يهدفون إليه يتجلى
واضحاً في إشاعة كلمة (محمديين) كتسمية جديدة بدلاً عن : مسلمين .

ولكن ما هو موقع هذا التخيّل والتصور من حقيقة أمر محمد ﷺ وشأنه ، إذا ما
حاولنا استجلاء الحقيقة على ضوء البحث المنطقي والموضوعي ؟

أولاً : إذا عدنا إلى التأمل في ظاهرة الوحي التي تجلت واضحة في حياته عليه
الصلاة والسلام (وقد مر البحث فيها بتفصيل واف) رأينا أن أبرز صفة في حياته عليه
الصلاة والسلام هي (النبوة) لا شك في ذلك ولا ريب ، والنبوة هي من المعاني الغيبية
التي لا تخضع لمقاييسنا المحسوسة وإذن فإن معنى المعجزة الخارقة قائم في أصل كيانه عليه
الصلاة والسلام . فلا يتسنى نفي المعجزات والخوارق عنه ﷺ إلا بهدم معنى النبوة نفسها
ونسخها من حياته ، وذلك يساوي بالبدهة إنكار الدين نفسه . ولئن لم يصرح بهذه
النتيجة بعض الباحثين من المستشرقين ، مكتفين ببيان ذكاء الرسول ومدى عبقريته
وشجاعته وسياسته للأمور ، فذلك اكتفاء منهم برسم ! المقدمات عن بيان النتائج ، إذ
النتيجة تأتي بطبيعتها بعد التسليم بمقدماتها .

على أن كثيرين صرحوا بالنتيجة ، بعد أن ضاقت بها صدورهم ، مثل شبلي شميل
حينما سمى الإيمان بالدين إيماناً بالمعجزة المستحيلة (٢٤) !..

(٢٤) يذكر الدكتور شبلي شميل هذا الكلام في مقدمته لتعريب كتاب (بوكنز) في شرح مذهب داروين عن نظرية
النشوء والارتقاء .

وأنت خير أنه لا معنى للبحث في إنكار جزئيات المعجزات أو إثباتها ، إذا كان أصل الدين محل شك أو إنكار .

ثانياً : إذا تأملنا في سيرته ﷺ ، ووقائع حياته ، وجدنا أن الله سبحانه وتعالى أجرى معجزات كثيرة على يديه ، لا مناص من قبولها ولا مجال لردّها ، لأنها نقلت إلينا بالأسانيد الصحيحة المتواترة التي ترتقي بالفكر والعقل إلى درجة القطع واليقين .

فمن ذلك حديث نبع الماء من بين أصابعه الشريفة ، أخرجه البخاري في كتاب الوضوء ، ومسلم في كتاب الفضائل ، ومالك في الموطأ في كتاب الطهارة . وغيرهم من أئمة الحديث بطرق مختلفة كثيرة ، حتى نقل الزرقاني عن القرطبي قوله : « إن نبع الماء من بين أصابعه ﷺ تكرر في عدة مواطن في مشاهد عظيمة ، وورد من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي » (٢٥).

ومن ذلك حديث انشقاق القمر على عهده ﷺ حينما سأله المشركون ذلك ، فقد أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، وأخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة ، وأخرجه غيرهما من عامة علماء الحديث . وقال ابن كثير : « وقد وردت بذلك الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة .. » . وهذا أمر متفق عليه بين العلماء : أنه وقع في زمان النبي ﷺ ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات (٢٦).

ومن ذلك حديث الإسراء والمعراج الذي نسوق هذا البحث بمناسبة ، وهو حديث متفق عليه لا تنكر قطعية ثبوته . وهو بإجماع جماهير المسلمين من أبرز معجزاته .

(٢٥) راجع الزرقاني على الموطأ : ٦٥/١

(٢٦) راجع تفسير ابن كثير : ٢٦١/٤

ومن العجيب أن هؤلاء الذين لا يفتأون يروجون صفة العبقرية ، والعبقرية وحدها للرسول ﷺ ويعدون اسم المعجزات والخوارق عن حياته يتجاهلون هذه الأحاديث المتواترة التي بلغت من الصحة درجة القطع ، فلا يتحدثون عنها سلباً ولا إيجاباً كأن كتب الحديث غير ممتلئة بها ، يعد لكل منها ما قد يزيد على عشرة طرق .

ومن الواضح أن سبب هذا التجاهل هو التهرب من الإشكال العويص الذي سيواجهونه لدى النظر في هذه الأحاديث : إذ هي تناقض في خط صريح واضح النظرية التي تطوف برؤوسهم (٢٧) .

ثالثاً : المعجزة ؛ كلمة لا يوجد لها معنى ذاتي عند التأمل والتدبر ، وما يراد بها إنما هو معنى نسبي مجرد . فالمعجزة فيما تواضع عليه اصطلاح الناس كل أمر خارج على المألوف والعادة . وكل من المألوف يتطور بتطور الأزمنة والعصور ، ويختلف باختلاف الثقافات والمدارك والعلوم . فرب أمر كان قبل فترة من الزمن معجزة فانقلب اليوم إلى شيء معروف ومألوف . ورُب أمر مألوف في بيئة متمدنة مثقفة ، ينقلب معجزة بين أناس بدائيين غير مثقفين .

بل الحق الذي يفهمه كل عاقل ، أن المألوف وغير المألوف ، معجزة في أصله.

فالكواكب معجزة ، وحركة الأفلاك معجزة ، وقانون الجاذبية معجزة ، والمجموعة العصبية في الإنسان معجزة ، والدورة الدموية فيه معجزة ، والروح التي فيه معجزة ، والإنسان نفسه معجزة ، وكم كان دقيقاً ذلك العالم الفرنسي (شاتوبريان) الذي أطلق على الإنسان اسم (الحيوان الميتافيزيقي) أي الحيوان الغيبي المجهول.

(٢٧) من هؤلاء صاحب (حياة محمد) فقد ترنح ترنحاً غريباً ، وهو يحاول أن يفر من الزامات هذه الأحاديث وأمثالها . كي لا يعكر على نفسه صفو نظريته الخيالية عن محمد .

غير أن الإنسان ينسى - من طول الإلف واستمرار العادة - وجه المعجزة وقيمتها في هذا كله ، فيحسب جهلاً منه وغروراً أن المعجزة هي تلكم التي تفاجئ ما ألفه واعتاده فقط ... ثم يمضي يتخذ مما ألفه واعتاده مقياساً لإيمانه بالأشياء أو كفره بها ... وهذا جهل عجيب من الإنسان مهما ترقى في مدارج المدنية والعلم !!

وتأمل يسير من الإنسان ، يوضح له بجلاء أن الإله الذي خلق معجزة هذا الكون كله ، ليس عسيراً عليه أن يزيد فيه معجزة أخرى أو أن يبدل ويغير في بعض أنظمتها التي أنشأ العالم عليها ولقد تأمل مثل هذا التأمل المستشرق الإنكليزي (وليم جونز) ، حينما قال :

«القدرة التي خلقت العالم ، لا تعجز عن حذف شيء منه أو إضافة شيء إليه ، ومن السهل أن يقال عنه أنه غير متصور عند العقل ، لكن الذي يقال عنه أنه غير متصور ، ليس غير متصور إلى درجة وجود العالم ! » .

يقصد أنه لو لم يكن هذا العالم موجوداً ، وقيل لواحد ممن ينكر المعجزات والخوارق ولا يتصور وجودها : سيوجد عالم كذا ، فإنه سيجيب رأساً ، إن هذا غير متصور ، ويأتي نفيه لتصور ذلك أشد بكثير من نفيه لتصور معجزة من المعجزات فهذا ما ينبغي أن يفهمه كل مسلم عن الرسول وما أكرمه الله به من المعجزات .



ثانياً : موقع معجزة الإسراء والمعراج من الأحداث التي كانت تمر برسول الله الله في ذلك الحين .

لقد عانى رسول الله ﷺ ألواناً كثيرة من المحن التي لاقاها من قريش ، وكان آخرها ما عاناه لدى هجرته إلى الطائف مما مر ذكره وبيانها . ولقد ظهر في دعائه الذي ناجي به ربه بعد أن جلس يستريح في بستان ابني ربيعة ما يتعرض له كل بشر من الشعور

بالضعف والحاجة إلى النصير وذلك هو مظهر عبودية الإنسان الله تعالى . وظهر في التجائه ذلك شيء من معنى الشكاة إليه سبحانه وتعالى ، والطمع منه في عافيته ومعونته ، ولعله خشي أن يكون الذي يلاقيه إنما هو بسبب غضب من الله عليه لأمر ما . ولذلك كان من جملة دعائه قوله : « إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي » .

فجاءت ضيافة الإسراء والمعراج من بعد ذلك تكريماً من الله تعالى له ، وتجييداً للزمتته وثباته ، ثم جاءت دليلاً على أن هذا الذي يلاقيه عليه الصلاة والسلام من قومه ليس بسبب أن الله قد تخلى عنه ، أو أنه قد غضب عليه ، وإنما هي سنة الله مع محبيه ومحبيه ، وهي سنة الدعوة الإسلامية في كل عصر وزمن .

ثالثاً : المعنى الموجود في الإسراء به ﷺ إلى بيت المقدس .

إن في الاقتران الزمني بين إسرائه عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس والعروج به إلى السموات السبع ، لدلالة باهرة على مدى ما لهذا البيت من مكانة وقضية عند الله تعالى . وفيه دلالة واضحة أيضاً على العلاقة الوثيقة بين ما بعث به كل من عيسى بن مريم ومحمد بن عبد الله عليهما الصلاة والسلام ، وعلى ما بين الأنبياء من رابطة الدين الواحد الذي ابتعثهم الله عز وجل به .

وفيه دلالة على مدى ما ينبغي أن يوجد لدى المسلمين في كل عصر ووقت ، من الحفاظ على هذه الأرض المقدسة ، وحمايتها من مطامع الدخلاء وأعداء الدين ، وكأن الحكمة الإلهية تهيئ بمسلمي هذا العصر أن لا يهنوا ولا يجبنوا ولا يتخاذلوا أمام عدوان اليهود على هذه الأرض المقدسة ، وأن يطهروها من رجسهم ، ويعيدوها إلى أصحابها المؤمنين .

ومن يدري ؟ فلعل واقع هذا الإسراء العظيم هو الذي جعل صلاح الدين الأيوبي رحمه الله يستبسل ذلك الاستبسال العظيم ويفرغ كل جهده في سبيل صد الهجمات الصليبية عن هذه البقعة المقدسة حتى ردهم على أعقابهم خائبين .

رابعاً : وفي اختيار النبي ﷺ اللبن على الخمر حينما قدمها له جبريل عليه السلام دلالة رمزية على أن الإسلام هو دين الفطرة ، أي الدين الذي ينسجم في عقيدته وأحكامه كلها مع ما تقتضيه نوازع الفطرة الإنسانية الأصيلة ، فليس في الإسلام شيء مما يتعارض والطبيعة الأصيلة في الإنسان ولو أن الفطرة كانت جسماً ذا طول وأبعاد ، لكان الدين الإسلامي الثوب المفصل على قدره .

وهذا من أسرار سعة انتشاره وسرعة تقبل الناس له . إذ الإنسان مهما ترقى في مدارج الحضارة وغمرته السعادة المادية ، فإنه يظل نزاعاً إلى استجابة نوازع الفطرة لديه ، ميالاً إلى الانعتاق من ربكة التكاليف والتعقيدات البعيدة عن طبيعته ، والإسلام هو النظام الوحيد الذي يستجيب لأعمق نوازع الفطرة البشرية .

خامساً : كان الإسراء والمعراج بكل من الروح والجسد معاً . على ذلك اتفق جمهور المسلمين من المتقدمين والمتأخرين . قال النووي في شرح مسلم ما نصه :

«والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسري بجسده ﷺ ، والآثار تدل عليه لمن طالعها وبحث عنها ، ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل ولا استحالة في حملها عليه فيحتاج إلى تأويل» (٢٨) .

ويقول ابن حجر في شرحه على البخاري : « إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسده وروحه ، وإلى هذا ذهب جمهور من علماء الحديث والفقهاء والمتكلمين و تواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة ولا ينبغي العدول عن ذلك إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل» (٢١) .

ومن الأدلة التي لا تقبل الاحتمال ، على أن الإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح ، ما ذكرنا من استعظام مشركي قريش لذلك ، وتعجبهم للخبر وسرعة تكذيبهم له . إذ لو كانت المسألة مسألة رؤيا وكان إخباره إياهم لذلك على هذا الوجه ، لما استدعى الأمر منهم أي تعجب أو استعظام أو استنكار ، لأن المرئيات في النوم لا حدود لها ، بل يجوز مثل هذه الرؤيا حينئذ على المسلم والكافر . ولو كان الأمر كذلك لما سألوه أيضاً عن صفات بيت المقدس وأبوابه وسواريه بقصد الإلزام والتحدي.

أما ، كيف تمت هذه المعجزة ، وكيف يتصورها العقل ؟ فكما تتم كل معجزة غيرها من معجزات الكون والحياة ... لقد قلنا آنفاً أن كل مظاهر هذا الكون ليست في حقيقتها إلا معجزات ، فكما تتصورها العقول في سهولة ويسر يمكن لها أن تتصور هذه أيضاً في سهولة ويسر .

سادساً : احذر وأنت تبحث عن قصة الإسراء والمعراج أن تركز إلى ما يسمى بـ (معراج ابن عباس) فهو كتاب ملفق من مجموعة أحاديث باطلة لا أصل لها ولا سند ، وقد شاء ذاك الذي فعل فعلته هذه أن يلصق هذه الأكاذيب بابن عباس رضي الله عنه ، وقد علم كل مثقف بل كل إنسان عاقل أن ابن عباس بريء منه ، وأنه لم يؤلف أي كتاب في معراج الرسول ﷺ ، بل وما ظهرت حركة التأليف إلا في أواخر عهد الأمويين .